

تفسير ابن كثير

ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ
فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

(ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة) أي : حولنا الحال من شدة إلى رخاء ، ومن مرض

وسقم إلى صحة وعافية ، ومن فقر إلى غنى ، ليشكروا على ذلك ، فما فعلوا . وقوله : (

حتى عفوا) أي : كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم ، يقال : عفا الشيء إذا كثر ، (وقالوا

قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون) يقول تعالى : ابتلاهم بهذا

وهذا ليتضرعوا وينيبوا إلى الله ، فما نجح فيهم لا هذا ولا هذا ، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا

بل قالوا : قد مسنا من البأساء والضراء ، ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا في قديم

الدهر ، وإنما هو الدهر تارات وتارات ، ولم يتفطنوا لأمر الله فيهم ، ولا استشعروا ابتلاء

الله لهم في الحالين . وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء ،

ويصبرون على الضراء ، كما ثبت في الصحيحين : " عجا للمؤمن ، لا يقضي الله له قضاء

إلا كان خيرا له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان

خير له " فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من السراء والضراء ; ولهذا جاء في الحديث

: " لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقيًا من ذنوبه ، والمنافق مثله كمثل الحمار ، لا

يدري فيم ربطه أهله ، ولا فيم أرسلوه " ، أو كما قال . ولهذا عقب هذه الصفة بقوله : (

فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون) أي : أخذناهم بالعقوبة بغتة ، أي : على بغتة منهم ،

وعدم شعور منهم ، أي : أخذناهم فجأة كما جاء في الحديث : " موت الفجأة رحمة

للمؤمن وأخذة أسف للكافر " .